سلسلة مفاهيم يجب أن تصحح

كلمة هادئة

في

نجاة أبوي المصطفى

د. عمر عبد الله كامل

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله خالق الأكوان ، اصطفى نبيه محمدا ﷺ من خيرة ولد عدنان ، وانتقاه من أطهر الأنساب ، ولم يزل ينقله من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة حتى أخرجه إلى الدنيا من أشرف أبوين أصلا ومجدا وسؤددا.

وبعد:

فلقد تشفى في مجتمعنا الإسلامي الحديث في موضوع أبوي المصطفى ﷺ هل هما من أهل النار أم هما ناجيين منها؟

ولقد كان الأولى لمن يخوض في هذه المسألة التأدب مع مقام المصطفى ﷺ خشية أذيته ، فالله تعالى يقول: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَّ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً } الأحزاب٥٧

وإذا كان الرسول ﷺ قد غضب لابنة أبي لهب الذي نزل القرآن بذمه أفلا يغضب لأبويه؟!

عن أبي هريرة أن سبيعة بنت أبي لهب جاءت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله إن الناس يصيحون بي و يقولون أنت ابنة حمالة الحطب فقام النبي ﷺ مغضبا فقال: (ما بال أقوام يؤذون نسبي و ذي رحمي ألا ومن آذى نسبي وذوي رحمي فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله.)

[ميزان الإعتدال في نقد الرجال ج: ٧ ص: ٢٥٥ و الإصابة :٧/ ٦٣٤ – ٦٣٥]

فكان الأولى بهؤلاء أن يقدموا الأدلة القطعية في القرآن (التي سترد في المسلك الأول) على ما سواها من الأدلة الظنية ، لا سيما أن حديث مسلم الذي يعتمدون عليه هو حديث متكلم فيه نصا ومتنا (كما سيرد في المسلك الثاني).

وأدنى الاعتبارات اعتبار أن والدي المصطفى ﷺ من أهل الفترة فهم ناجون من عذاب النار (كما سيرد في المسلك الثالث).

وقد بحث في هذا الموضوع أساطين العلماء كالشافعي والنووي والسيوطي والمناوي والماوردي ... وغيرهم كما سيرد في صفحات هذا المفهوم.

نسأل الله أن يرزقنا الأدب مع نبيه ﷺ ويجعلنا من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم.

المسلك الأول : الدلائل على نجاة الأبوين الشريفين من القرآن الكريم

١. قال تعالى (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) .
٢. وحكى الله تعالى من دعاء إبراهيم عليه السلام قوله (ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة).
٣. وحكى الله من دعاء إبراهيم عليه السلام أيضاً (رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام).
٤. وحكى الله من دعاء إبراهيم عليه السلام (واجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي). يدل قوله تعالى (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) على أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد دعاء ربه أن يجعل من ذريته من ولده إسماعيل عليه السلام أمة مسلمة إذ كان المقام هو الدعاء لنفسه ولإسماعيل عليهما السلام على ما رفعا من قواعد البيت فتعقيبه على ذلك بقوله (وابعث فيهم رسولاً منهم) يوضح أن المراد هم ذرية إسماعيل دون سواه من ولد إبراهيم كما يوضح أنه قد دعا بأن يبعث الرسول من هذه الأمة المسلمة .

ولا يتصور بعثته من الأمة المسلمة من ولد إسماعيل إلا إذا كان دين إبراهيم سيمتد في القرون التي بينه وبين نبينا محمد ﷺ ، وأن الزمان لا يخلو من قوم مسلمين منهم إلى البعثة المحمدية يدينون بملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام في التوحيد الخالص ولا يعبدون الأصنام. وقد أخرج ابن المنذر في تفسيره بسند صحيح عن ابن جرير في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام (واجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي) قال لا يزال من ذرية إبراهيم عليه السلام ناس على الفطرة يعبدون الله .

وحيث وجد في ذرية إسماعيل عليه السلام من عبد الأصنام فواضح أن إبراهيم قد خص بدعائه أمة من ذريته تبقى فيهم ملته ولا تندرس على تطاول القرون إلى أن يبعث الله رسوله محمداً ﷺ منهم.

ولما لم يكن ممكنا بعثته من جميع أعراق ذريته كان أولادهم باحتسابه منهم هم آباؤه وأجداده وأمهاته فيكون منهم نسباً قريباً وملة ...

قال السيوطي في الحاوي (كل ما ذكر عن ذرية إبراهيم عليه السلام فإن أولى الناس به سلسلة الأجداد الشريفة الذين خصوا بالاصطفاء وانتقل إليهم نور النبوة واحداً بعد واحد فهم أولى بأن يكونوا هم البعض المشار إليه في قوله (رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي) ، ولما وضح أن المخصوص بالدعاء هم آباؤه وأجداده ﷺ دون عموم الذرية .. قال سفيان بن عيينة لما سئل هل عبد أحد من ولد إسماعيل الأصنام قال لا ألم تسمع قوله تعالى (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام) كما رواه ابن أبي حاتم . وكذلك أخرج ابن جرير في تفسيره عن مجاهد أنه قال (استجاب الله لإبراهيم دعوته في ولده فلم يعبد أحد من ولده صنماً بعد دعوته). ولا ينطبق هذا إلا على من خص بدعائه أن تبقى فيهم ملته ولا تندرس من آبائه وأجداده ﷺ ومن نذر قليل خصهم الله بعنايته ممن لم يبدلوا ولم يحرفوا ، وكأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام بما آراه الله من ملكوت السموات والأرض شاهد ذلك النور المحمدي في بطون وأصلاب فئات من صلبه طلب لهم الإسلام والانقياد الذي طلبه لنفسه إلى أن يظهر ذلك النور الإلهي الذي أراه الله إياه في البطون والأصلاب ليظهر ذلك الرسول على ما تقتضيه حكمته تعالى وقصده الخاص من جعله سبباً لمعرفته وشهوده بخلق جسمه الطاهر من أطهر الأعراف البشرية وأطيب الأنساب وأنفس جواهر النطف الناشئة بين الآباء والأمهات فيحيي الله به ملة إبراهيم في توحيده وشعائره مما أصابها من التحريف وتبقى إلى يوم القيامة كما قال تعالى (وجعلها كلمة باقية في عقبه) إلى أن قال (حتى جاءهم الحق ورسول مبين). روى عيد بن حميد عن قتادة في قوله تعالى (وجعلها كلمة باقية في عقبه) قال شهادة أن لا إله إلا الله والتوحيد لا يزال في ذريته من يقولها بعده.

ونقل عبد الرزاق في تفسيره عن ابن معين عن قتادة في الآية قال الإخلاص والتوحيد لا يزال في ذريته من يوحد الله ويعبده.

وأخرج ابن المنذر (قال ابن جريج الآية في عقب إبراهيم لم يزل في ذريته من يوحد الله ويعبده بقوله لا إله إلا الله.)

قال ابن المنذر وقول آخر (فلم يزل ناس من ذريته على الفطرة يعبدون الله حتى تقوم الساعة) وهكذا اختار الله لنبيه آباءه وأمهاته من طاهر إلى طيب ومن طيب إلى طاهر إلى أن أوصله الله إلى صلب عبد الله بن عبد المطلب ومنه إلى رحم أمه آمنة فأخرجه إلى الدنيا وجعله سيد المرسلين وخاتم النبيين ورحمة

العالمين وهل يعقل أن يقر الله الروح الطاهر الطيب بأصلاب المشركين وأرحام المشركات ويجعلها أصله في التكوين والتصوير وهو القائل إنما المشركون نجس والقائل أيضاً الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات .

وإذا كان تخصيص هؤلاء بهؤلاء واردا للمناسبة في التزاوج بين الفريقين فأولى أن تكون المناسبة بين النطف التي تتكون في الأصلاب وتستقر في الأرحام فلا يتولد الطيب الطاهر من مشركين نجسين ، وصدق الله العظيم (الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات).[1]

[1] الحجج الواضحات في نجاة الأبوين والأجداد والأمهات . لأبي الحسنين عبد الله بن إسحاق الحسني

المسلك الثاني : الدلائل على نجاة الأبوين الشريفين في الأحاديث الشريفة

أولا: طهارة نسبه ﷺ في الأحاديث

١. روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى كنت في القرن الذي كنت فيه).

٢. وأخرج مسلم والترمذي وصححه عن وائلة بن الأسقع رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل كنانة واصطفى من كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم.)

قال ابن تيمية قضية الخبر أن إسماعيل وذريته صفوة ولد إبراهيم .

٣. وفي ذخائر العقبي للمحب الطبري من حديث وائلة بلفظ: (إن الله اصطفى من ولد آدم إبراهيم واتخذه خليلا واصطفى من إبراهيم إسماعيل واصطفى من مضر كنانة وقريشاً ثم اصطفى من بني هاشم بني عبد المطلب ثم اصطفاني من بني عبد المطلب .

٤. روى الترمذي وحسنه عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ (إن الله خلق الخلق فجعلني في خير فرقهم ثم تخير القبائل فجعلني في خير قبيلة ثم تخير البيوت فجعلني في خير بيوتهم فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً).

٥. أخرج البيهقي في دلائل النبوة عن أنس رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : (أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما ، فأخرجت من بين أبوي فلم يصبني شيء من عهد الجاهلية وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي فأنا خيركم نسباً وخيركم أباً.)

٦. وأخرج أبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال لم يلتق أبواي قط على سفاح ولم يزل الله ينقلني من الأَصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما.

٧. ورى الطبراني عن ابن عمر أنه ﷺ قال: (إن الله تعالى اختار خلقه واختار منهم بني آدم ثم اختار منهم العرب فاختار منهم قريشاً فاختار منهم بني هاشم ثم اختار بني هاشم فاختاروني فلم أزل خياراً من خيار . ألا من أحب العرب فبحبي أحبهم ومن أبغض العرب فببغضني أبغضهم.)

٨. وروى الطبراني وأبو نعيم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام قال قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أجد رجلاً أفضل من محمد ولم أر بني أب أفضل من بني هاشم . قال ابن حجر (لوائح الصحة ظاهرة على صفحات هذا المتن) يريد والله أعلم أن الأحاديث الكثيرة تؤيده في أفضليته ﷺ وفي أفضلية بني هاشم على سائر القبائل .

٩. وأخرج مروديه (قرأ رسول الله ﷺ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ثم قال أنا أنفسكم نسباً وصهراً وحسباً ليس في آبائي من لدن آدم سفاح كلنا نكاح.

١٠. وقال السيوطي أورد المحب الطبري في ذخائر العقبي والبزار في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال دخل ناس من قريش على صفية بنت عبد المطلب فجعلوا يتفاخرون ويذكرون الجاهلية فقالت صفية بنت عبد المطلب منا رسول الله ﷺ فقالوا نبتت النخلة أو الشجرة في الأرض الكساد فذكرت ذلك صفيه لرسول الله ﷺ فغضب فقام على المنبر فقال: (يا أيها الناس من أنا ؟ قالوا أنت رسول الله قال انسبوني قالوا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قال فما بال أقوام ينزلون أصلي فو الله أني لأفضلهم أصلاً وخيرهم موضعاً .)

١١. وأخرج الحاكم عن ربيعة بن الحارث رضي الله عنه قال بلغ النبي ﷺ أن أقواماً نالوا منه فقالوا إنما مثل محمد كمثل نخلة نبتت من كناس فغضب رسول الله ﷺ فقال: (إن الله خلق خلقه فجعلهم فرقتين فجعلني من خير الفرقتين ثم جعلهم قبائل فجعلني من خيرهم قبيلاً ثم جعلهم بيوتاً فجعلني من خيرهم بيتاً ثم قال أنا خيركم قبيلاً وخيركم بيتاً.)

١٢. وأخرج ابن المنذر بسند صحيح عن ابن جريج قال ليس آزر أبا إبراهيم وإنما هو إبراهيم بن تيرخ أو تاريخ بن شاروخ بن فاخور بن فالخ . قال والعرب تطلق لفظ الأب على العم إطلاقاً شائعاً كما قال تعالى (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق).

١٣. وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر بأسانيد من طرق بعضها صحيح عن مجاهد قال ليس آزر أبا إبراهيم .

الخلاصة:

قال الإمام السيوطي:

اعلم أن الأحاديث يصرح أكثرها لفظاً وكلها معنى أن آباء النبي ﷺ وأمهاته إلى آدم وحواء مطهرون من دنس الشرك والكفر ليس فيهم كافر لأنه لا يقال في حق الكافر أنه مختار ولا طاهر ولا مصفى بل يقال نجس . قال تعالى (إنما المشركون نجس) فوجب أن لا يكون في أجداده مشرك فما زال منقولاً من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الطاهرة ومازال ينتقل نوره من ساجد إلى ساجد كما قال تعالى (الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين) فالآية تدل على أن جميع آبائه ﷺ كانوا مسلمين وحينئذ وجب القطع بأن والد إبراهيم ما كان من الكافرين وإنما كان ذلك عمه) ا هـــ.[٢]

قال ابن حجر المكي الأحاديث مصرحة لفظاً ومعنى أن آباءه وأمهاته ﷺ إلى آدم مختارون كرام وأن أمهاته طاهرات والكافر لا يقال في حقه مختار ولا كريم ولا طاهر بل نجس . أ هـــ.

وهكذا طهر الله رسوله بالحفظ في الأصلاب والأرحام وطفلاً وناشئاً وكهلاً حتى قدسه بظهور نبوته وشرفه بالقربة وطيبه بروحه وجلله ببهائه صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه .

[2] التعظيم والمنة في أن أبوي رسول الله في الجنة . جلال الدين السيوطي . ص ٢٦ وما بعدها

مناقشة حديث مسلم:

فإن قيل : فما هو الجواب عن الحديث الذي رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله أين أبي ؟ قال : (في النار) – فما قفّ – أي : ذهب – دعاه فقال : (إن أبي وأباك في النار).

فقد أجاب الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى عن ذلك فقال : إن هذه اللفظة : إن أبي وأباك في النار – لم يتفق على ذكرها الرواة ، وإنما ذكرها حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس رضي الله عنه ، وهي الطريق التي رواه مسلم منها .

وقد خالفه معمر عن ثابت فلم يذكر : إن أبي وأباك في النار ، ولكن قال : (إذا مررت بقبر كافر فبشره بالنار). والمعنى أنه ﷺ يريد بذلك أن يخبر الرجل أن أباه ليس وحده في النار لكفره ، بل له أمثال في النار قد كفروا ، ومن المعلوم أن الكفر هو الستر فالكافر في الشرع هو الذي ستر نور الحق بعدما بان له وظهر ، بأن جحده وكذب عناداً وكبراً ، أو إتباعا لهواه .

قال الحافظ السيوطي : وهذا اللفظ : أي : (إذا مررت بقبر كافر فبشره بالنار) – لا دلالة فيه على أن والده ﷺ في النار ، لأنه ﷺ لم يذكر فيه والده أصلاً . قال : وهذا اللفظ أثبت من حيث الرواية ، فإن معمراً هو أثبت من حماد ، فإن حماد تكلم في حفظه ، ووقع في أحاديثه مناكير ، ذكر المحدثون أن ربيبه دسها في كتبه ، وكان حماد لا يحفظ ، فحدث بها ، فوهم فيها ، ومن ثم لم يخرّج له البخاري شيئاً ، ولا خرّج له مسلم في الأصول إلا من روايته عن ثابت .

وقال الحاكم في [المدخل] : ما خرّج مسلم لحماد في الأصول إلا من حديثه عن ثابت ، وقد خرّج له في الشواهد عن طائفة . وأما معمر فلم يتكلم في حفظه ، ولا استنكر شيء من حديثه ، واتفق على التخريج له والرواية عنه الشيخان – فكان لفظه أثبت وأصح .

قال رحمه الله تعالى : ثم وجدنا الحديث ورد من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، بمثل لفظ رواية معمر عن ثابت عن أنس فأخرج له البزار والطبراني والبيهقي من طريق إبراهيم بن سعد عن الزهري عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ : أين أبي ؟ قال : (في النار). قال : فأين أبوك ؟ قال : (حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار).

قال : وهذا إسناد على شرط الشيخين ، فتعين الاعتماد على هذا اللفظ ، وتقديمه على غيره ا هـ.

قال عبد الله : وليس في هذا الحديث ما يدل على أن أباه ﷺ في النار فإنه ﷺ لم يقل له إن أبي وأباك في النار ، وإنما أخبره أن هناك كفاراً أمثال أبي الرجل ، كفروا بعدما تبين لهم الحق الذي جاء به ﷺ ، فحيثما مر بقبر واحد منهم فبشره بالنار.

قال : الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى : فعلم أن اللفظ الأول – إن أبي وأباك في النار – هو من تصرف الراوي ، رواه بالمعنى على حسب فهمه . ا هـ

يعني : أن الراوي فهم من قوله ﷺ : (حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار) – فهم من ذلك أن أباه أيضاً في النار ، فهذا وهم من الراوي ، نشأ عن سوء فهمه فحدث بمعنى ما فهمه.

قال الحافظ السيوطي : وقد وقع في [الصحيحين] روايات كثيرة من هذا النمط ، فيها لفظ تصرف فيه الراوي ، والحال غيره أثبت منه ، كحديث مسلم عن أنس في نفي قراءة البسملة ، وقال الشافعي : إن الثابت من طريق آخر ينفي سماعها – أي : سماع البسملة – من قارئ الفاتحة في الصلاة ، ففهم منه الراوي نفي قراءتها ، فرواه بالمعنى على ما فهمه فأخطأ.

قال رحمه الله تعالى : ونحن أجبنا عن حديث مسلم في هذا المقام عن قول الراوي : إن أبي وأباك في النار ، أجبنا بنظير ما أجاب به إمامنا الشافعي رضي الله عنه عن حديث مسلم في نفي قراءة البسملة . ا هـ

وقد أورد الحافظ السيوطي أحاديث متعددة الطرق ، منها ما رواه ابن ماجه ، ومنها ما رواه الحاكم وصححه ، وما رواه غيرهما ، وليس في شيء منها لفظ : إن أبي وأباك في النار .

قال عبد الله : فانظر يا أخي العاقل رعاك الله تعالى : أتأخذ برواية انفرد بها حماد ! وتدع بقية الروايات .. فالحق أحق أن يتبع ، ورواية الأكثر هي المعول عليها – ويد الله مع الجماعة.

قال الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى : ولو فرض اتفاق الرواة على اللفظ الأول – أي : لفظ إن أبي وأباك في النار – كان ذلك معارضاً لما تقدم من الأدلة . ا هـ.

يعني : الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على أن أهل الفترة وهم الذين لم تبلغهم الدعوة هم ناجون غير معذبين ، بنص قوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) وبقية الآيات المتقدمة ...

قال رحمه الله تعالى : والحديث الصحيح إذا عارضته أدلة أخرى هي أرجح منه وأقوى : وجب تأويله .

قال عبد الله : نعم هذا إذا اتفق على صحته ، فيكون ظاهره غير مراد ، ويؤول دفعاً للتعارض، أما الحديث الذي نحن فيه ، وما فيه من لفظ : إن أبي وأباك في النار – فإنه رواية المتكلم فيه – ولم يتفق على صحة هذا اللفظ .[3]

[3] هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان . الشيخ عبد الله سراج الدين . ٢٨٧-٢٩٠

ثانيا: إيمان أجداده ﷺ:

دلت الآثار السابقة على أن كل أصل من أصوله ﷺ من آدم عليه السلام إلى أبيه عبد الله هو من خير قرنه وأفضله أو خيره وأفضله .

كما وردت آثار كثيرة أن الأرض من عهد آدم إلى بعثة النبي ﷺ وإلى قيام الساعة لا تخلو من ناس على الفطرة يعبدون الله ويوحدونه وبهم تحفظ الأرض ولولاهم لهلكت ومن عليها فهذه وتلك تدل على أن أصول الرسول الله ﷺ لم يكن فيهم مشرك وإلا لما صح أن يكون كل أصل منهم من خير أهل قرنه أو خيرهم إذ المشرك لا يكون خيراً من المسلم بأي حال من الأحوال .

والآثار الدالة على أن الأرض لم تخل من مسلم في كل القرون كثيرة :

١. منها ما رواه عبد الرزاق في مصنفه بإسناده على شرط الشيخين عن ابن جريج قال ، قال ابن المسيب قال علي بن أبي طالب (لم يزل على وجه الدهر في الأرض سبعة مسلمون فصاعدا فلولا ذلك هلكت الأرض ومن عليها). ومثل هذا لا يقال بالرأي فله حكم المرفوع.

ثم ساق السيوطي آثاراً يعلم من مجموعها أن أجداد الرسول ﷺ من آدم إلى زمن نمرود كانوا مؤمنين بيقين ، قال ثم استمر التوحيد في ولد إبراهيم وإسماعيل .

قال الشهرستاني في الملل والنحل: كان دين إبراهيم قائماً والتوحيد في صدر العرب شائعاً وأول من غيّره واتخذ عبادة الأصنام عمرو بن لحي .

وقال ابن كثير في تاريخه: كانت العرب على دين إبراهيم إلى أن ولي عمرو بن عامر الخزاعي مكة فأحدث عبادة الأصنام وشرع للعرب الضلالات من السوائب وغيرها وزاد في التلبية .

وقال السهيلي في الروض الأنف: كانت العرب قد جعلت عمرو بن لحي مطاعاً لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوه شرعه لأنه كان يطعم الناس ويكسوهم في الموسم . اهـ.

قال السيوطي وهذا يثبت أن آباء النبي ﷺ من عهد إبراهيم إلى زمان عمرو المذكور كلهم مؤمنون حيث لم يدخل التبديل والتغيير في شريعة إبراهيم إلا في زمن عمرو بن لحي الخزاعي.

ثم أخرج السيوطي روايات عن ابن عباس والطبري وابن سعد في طبقاته والسهيلي في الروض الأنف ووكيع في كتاب الغرر من الأخبار يدل مجموعها على بقاء كل من عدنان ومعه مضر وإلياس وكعب بن لؤي وولده مرة وغيرهم من العرب كربيعة وخزيمة وأسد وتميماً وضبة وقيساً على الإيمان.

ونقل عن الماوردي في دلائل النبوة وأبي نعيم في دلائل النبوة أن كعب بن لؤي كان يخطب قريشاً يوم العروبة وهو يوم الجمعة فيذكرهم بمبعث النبي ﷺ ويعلمهم أنه من ولده ويأمرهم باتباعه والإيمان به. ويبقى بعد مرة من آبائه ﷺ كلاب وقصي وعبد مناف وهاشم وعبد المطلب وعبد الله والده ﷺ وما ذكرناه من دعوات إبراهيم عليه السلام لذريته من إسماعيل عليه السلام (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام) (رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي) (وجعلها كلمة باقية في عقبه) يدل على أن من ذريته من بقي على الإيمان وأولادهم به سلسلة الأجداد والآباء الشريفة الذين خصوا بالاصطفاء وانتقل إليهم نور النبوة واحداً بعد واحد فهم أولى بأن يكونوا هم البعض المشار إليهم في دعاء إبراهيم عليه السلام في الآيات السابقة . وقد دل ما سبق من دلائل على إيمانهم وحسبك ما رأوا من دلائل نبوته التي نقلت عنهم .

قال أبو الحسن الماوردي في كتابة أعلام النبوة: إن الله استخلص رسوله ﷺ من أطيب المناكح وحماه من دنس الفواحش ونقله من أصلاب طاهرة إلى أرحام منزهة وقد قال ابن عباس في تأويل قوله تعالى (وتقلبك في الساجدين) أي تقلبك من أصلاب طاهرة من أب بعد أب إلى أن جعلك نبياً فكان نور النبوة طاهراً في آبائه ثم لم يشركه في ولادته من أبويه أخ ولا أخت لانتهاء صفوتهما إليه وقصور نسبهما عليه ليكون مختصاً بنسب جعله الله للنبوة غاية ولتفرده نهاية فيزول عنه أن يشارك فيه ويماثل فيه فلذلك مات عنه أبواه في صغره فأما أبوه فمات وهو حمل وأما أمه فماتت وهو ابن ست سنين وإذا خبرت حال نسبه وعرفت طهارة مولده علمت أنه سلالة آباء كرام ليس في آبائه مسترذل ولا مغمور مستبدل بل كلهم سادة قادة ، وشرف النسب وطهارة المولد من شروط النبوة .

ثالثا: إيمان عبد المطلب جد النبي ﷺ

أكثر الناس في عبد المطلب مستدلين على كفره بما لا يصلح دليلاً ويعارض ما ذكرناه من إسلام أصوله ﷺ وانتقال النور النبوي من صلب إلى صلب .

قال الشهرستاني في الملل والنحل: ظهر نور النبي ﷺ في أسارير عبد المطلب بعض الظهور وببركة ذلك النور كان يأمر ولده بترك الظلم والبغي ويحثهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن دنيات الأمور وببركة ذلك النور كان يقول في وصاياه أنه لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبة إلى أن هلك رجل ظلوم ولم تصبه عقوبة فقيل لعبد المطلب في ذلك ففكر وقال والله إن وراء هذه الدار داراً يجزي فيها المحسن بإحسانه ويعاقب فيها المسيء بإساءته وببركة هذا النور قال عبد المطلب لأبرهة إن لهذا البيت ربا يحميه وببركة هذا النور قال وقد صعد أبا قبيس :

- لاهم إن المرء يمنع رحله فامنع رحالك
- لا يغلبن صليبهم ومحالهم يوماً محالك
- وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك .

قال السيوطي : وينضم إلى هذا أن النبي ﷺ قد انتسب إليه يوم حنين فقال :

أنا النبي لا كذب .. أنا ابن عبد المطلب

وهذا من أقوى ما يقوى به القول أنه كان على دين إبراهيم لأن الفخر بالانتساب إلى الآباء الكفار منهي عنه فروى البيهقي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: (لا تفتخروا بآبائكم الذين ماتوا في الجاهلية فو الذي نفسي بيده لما يدحرج الجعل بأنفه خير من آبائكم الذين ما توا في الجاهلية.)

وروى البيهقي أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إن الله اذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء لينتهين أقوام يفتخرون برجال إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكوننّ أهون على الله من الجعلان التي ترفع النتن بأنفها.)

وأورد البيهقي في شعب الأيمان حديث مسلم: (إن في أمتي أربعاً من أمر الجاهلية ليسوا بتاركين الفخر في الأحساب ... الحديث) ، وإشارته ﷺ إلى اصطفاء آبائه ليس من باب الفخر وإنما هو من باب التحدث بنعمة الله عليه .

وفي حديث البزار الذي أوردناه فيما سبق من قوله ﷺ : (ما بال أقوام ينزلون أصلي فوالله إني لأفضلهم أصلاً وخيرهم موضعاً.)

وأحاديث ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما أتم الدلالة على سلامة أصوله من الشرك .

وما ورد في الصحيح من قول أبي طالب: أموت على ملة عبد المطلب لا دلالة فيه على أن عبد المطلب قد مات على الشرك أو أن أحداً منهما قد عبد الأصنام.

رابعا: إيمان أمهاته ﷺ

وبعد ذكر أجداده وسلامتهم من الشرك نأتي على ذكر سلسلة أمهاته وسلامتهن من الشرك وطهارتهن من السفاح . قال السيوطي في حاويه: استقرأت أمهات الأنبياء عليهم السلام فوجدتهن مؤمنات فأم اسحق وموسى وهارون وعيسى وحواء أم شيث مذكورات في القرآن بل قيل بنبوتهن.

ونص بعض المفسرين على إيمان أم نوح وأم إبراهيم ورجحه أبو حيان في تفسيره وقد تقدم عن ابن عباس أنه لم يكن بين نوح وآدم والد كافر ولهذا قال نوح (رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً) وقال إبراهيم (ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) ولم يتعذر من استغفار إبراهيم في القرآن إلا لأبيه خاصة دون أمه تدل على أنها كانت مؤمنة وقد دلت الأخبار السابقة على أن آزر الذي استغفر له لم يكن إلا عمه.

وكذلك أم النبي ﷺ وكأن السر في ذلك ما يرينه من النور كما ورد في حديث أحمد والبزار والطبراني والحاكم والبيهقي عن العرباض بن سارية أن رسول الله ﷺ قال: (إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمجندل في طينته وسأخبركم عن ذلك إني دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأت)

وكذلك أمهات النبيين يرين ، وإن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نوراً أضاءت له قصور الشام.

ولا شك أن الذي رأته أم النبي ﷺ في حال حملها وولادتها له من الآيات أكثر وأعظم مما رآه سائر أمهات الأنبياء كما سبق في كتب السيرة.

المسلك الثالث : الدلائل على نجاة الأبوين الشريفين أنهم من أهل الفترة

وأهل الفترة ناجون ، وأهل الفترة هم كل من كان بين رسولين ، ولم يكن الأول مرسلاً إليهم ولا أدركوا رسالة الثاني وقيل : كل من لم يدرك رسالة رسول من الرسل ، سواء أرسل إليه أو لا – والأكثر على الأول . ومن المعلوم أن أهل الفترات متعددون ، ولكن إذا أطلقت الفترة يراد بها ما بين سيدنا عيسى وبين سيدنا محمد ﷺ قال تعالى : (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير)).

وتلك الفترة كانت مدتها : ستمائة سنة ، وقيل خمسمائة وستون ، وقيل : خمسمائة وأربعون . والفترة في اللغة : هي على وزن فعلة ، والمادة تدل على الانقطاع والسكون عن العمل ، والمراد بها هنا : انقطاع ما بين الرسولين . وقد ذهب جمهور العلماء : إلى نجاة أهل الفترة وأنهم لا يعذبون لأنهم لم تبلغهم الدعوة ولم تقم عليهم الحجة – وقد جرى على ذلك أئمة الشافعية في الفقه ، والأشاعرة في الأصول ، وقد نص على ذلك الإمام الشافعي رضي الله عنه في (الأم) ، و (المختصر) وتبعه جميع الأصحاب ، فلم يشذ أحد منهم بالمخالفة – كما نقل ذلك عنهم المحققون والأدلة على القول بنجاة أهل الفترة كثيرة أذكر جملة منها : قال تعالى : (وماكنا معذبين حتى نبعث رسولاً)).

قال الحافظ السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم في (تفسيره) عند هذه الآية بسند حسن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (الهالك في الفترة يقول : رب لم يأتني كتاب ولا رسول ثم قرأ هذه الآية : (لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين).

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم في (تفسيرهما) عن قتادة في الآية قال : إن الله تعالى ليس بمعذب أحداً حتى يسبق إليه من الله خبراً ، أو تأتيه من الله بينة ا هـ – أي : بواسطة رسول الله ﷺ .

فقد أخبر سبحانه أنه لا يعذب أحداً حتى يبعث رسولاً يهدي إلى الحق ، ويردع عن الضلال ، ويأتي بالبينات ، ويقيم الحجج ، ومهد الشرائع ، وبذلك تقوم بحجة الله تعالى على العباد ، ولا يبقى عذر

لأهل العناد قال الله تعالى ((رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً)).

فلو أنه سبحانه عذبهم قبل أن يرسل إليهم رسولاً لاحتجوا بأنهم لا يعلمون ، كما أخبر سبحانه بقوله ((ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى)).

وقال تعالى ((ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ..) الآيات .

وقال تعالى : (وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين)) فقوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً)) هذا عام في عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فلا يهلك قوماً في الدنيا ولا يعذبهم في الآخرة إلا بعد إرسال رسول فيهم ، وإقامة الحجة عليهم .

أما الدليل على أنه لا يعذبهم في الدنيا إلا بعد إرسال الرسول فيهم ، فقد قال تعالى ((وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون)).

فيبعث فيهم الرسل بالبينات ، وتقوم الحجة عليهم فهناك من يجحد ويعاند فيكون ظالماً لنفسه ، لأنه عرضها للعذاب فيستحقون العذاب والهلاك بعنادهم وإعراضهم عن قبول الحق الذي ظهر بالبينات فيهلكهم وهم ظالمون لأنفسهم ، ولكنه سبحانه ما ظلمهم .

قال تعالى : (وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)

وقال تعالى : ((وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها غافلون) فالله تعالى لا يعذب ولا يهلك قوماً بسبب ظلم فعلوه ، وهم غافلون عنه ، ولم ينبهوا عليه ولم ينهو عنه ، بل إنه سبحانه ينبههم ويحذرهم من المظالم والمحارم بواسطة الرسل صلوات الله تعالى عليهم ، وإنزال الكتب حتى لا يبقى لهم عذراً بسبب جهلهم أو غفلتهم وعدم علمهم .

وقوله تعالى في الآية السابقة (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث ...) يدلك على أن الرسل صلوات الله تعالى عليهم إنما يبعثهم الله تعالى من خيرة البلاد والمدن المتحضرة ، فإن الأم معناها الأصل والمرجع فهو سبحانه يبعث في أمهات القرى – أي : أمهات المدن رسولاً يبلغ أهل تلك الأم ، ومن

حولها من القرى ، وتسمى أمهات القرى في الوقت الحاضر بالعواصم فكل مجموعة من البلاد لها عاصمة يرجع إليها في أمورها وتدابيرها ومصالحها ، ولما كانت أم أمهات القرى والبلاد عامة هي : مكة المكرمة ، بسبب وجود بيت الله تعالى المعظم فيها ، وهي : الكعبة المشرفة ، التي دحيت الأرض من تحتها حين خلق الله تعالى الأرض ، وإليها مرجع البلاد في حجها ومصلاها وغير ذلك ، فهي الأم الكبرى لجميع الأمهات ، لذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يبعث فيها صاحب الرسالة العامة لجميع البلاد ، شرقها وغربها ، وشمالها وجنوبها ، قال تعالى (وكذلك أو حينا إليك قرآنا عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها) فقوله تعالى : (ومن حولها) يشمل جميع البلاد في جميع الجهات ، لأن مكة المكرمة هي قلب الأرض كلها – بسبب بيت الله المعظم . وأما الدليل على أن الله تعالى لا يعذب في الآخرة إلا بعد إرسال الرسل بالبينات ، وإقامة الحجج بالآيات ، وإزالة الشبهات ، وتذكيرهم بيوم الحساب فقد قال الله تعالى : (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين قيل : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ..). فانظر في جواب الكفار وقولهم : (ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) المعنى : أنهم اعترفوا بإقامة الحجة عليهم ، وأن رسلهم قد بلغتهم ، وبينت لهم ، وأظهرت لهم نور الحق ، ولكنهم تعاموا ، وراحوا يعاندون ويعارضون كبراً وعتواً ، فكفروا – أي : ستروا الذي ظهر لهم بجحودهم وتكذيبهم ، ووقفوا وراء حجاب كبرهم وإنكارهم ، فهم حقاً كافرون –أي : ساترون الحق وجاحدوه ، كما قال تعالى : (أولئك هم الكافرون حقاً) الآية من المائدة.

ولذلك كانت النتيجة أنهم قالوا : (بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) أي : لأنهم كافرون وجاحدون للحق بعدما تبين لهم ، فقد اعترفوا بحقية العذاب عليهم كما قال تعالى: (كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا : بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير وقالوا : لو كنا نسمع) أي – لما جاءت به النذر سماع فهم – (أو نعقل) – أي : نتعقل ما

قاله النذر – (ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير). فما ظلمهم الله تعالى ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

وقال تعالى : (وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات) ؟ – أي : قد جاء رسلنا بالبينات الواضحة الساطعة – (قالوا: فادعوا وما دعاء الكافرين) – أي : الجاحدين للحق ، الساترين له بعد ظهوره – (إلا في ضلال). وقال تعالى : مخاطباً للكفار الذين استحقوا النار – : (يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) – أي جاحدين الحق بعدما ظهر لهم (ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون).

فقد تبين لك من جميع ما تقدم أن الله تعالى لا يعذب إلا بعد إرسال الرسل بالبينات ، وإقامة الحجج القاطعات ، فأما أهل الفترة : فإنهم لم تبلغهم الرسالة ، ولم تقم عليهم الحجة ، فهم لا يعذبون ، كما دل عليه قوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً).

وقد جرى على هذا المسلك في والدي سيدنا رسول الله ﷺ قوم من كبار العلماء فصرحوا بأنهما لم تبلغهم الدعوة .

قال الإمام السيوطي رحمه الله تعالى : وهذا المسلك أول ما سمعته من شيخنا شيخ الإسلام شرف الدين المناوي ، فإنه سئل عن والد رسول الله ﷺ هل هو في النار ؟! فزبر السائل زبأرة شديدة – أي : زجرة وانتهره بشدة. فقال السائل : هل ثبت إسلامه ؟ فقال : إنه مات في الفترة ، ولا تعذيب قبل البعثة. ا هـ هذا وقد ذهب كثير من أئمة العلماء المتقدمين إلى نجاة الأبوين الشريفين باعتبار أنهما من أهل الفترة ، وأهل الفترة هم ناجون غير معذبين ، وقد ذكرت لك الأدلة القرآنية فيما سبق .

قال الإمام أبو عبد الله بن خلفة الوشتاني الأبي المالكي المتوفي سنة / ٨٢٧/ هـ قال في شرحه على صحيح مسلم في الجزء الأول ص / ٣٧٠/ : قال بعدما نقل عبارة الإمام النووي رحمه الله تعالى عند رواية: (إن أبي وأباك في النار) – أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان في النار ، وليس

هذا من التعذيب قبل بلوغ الدعوة ، لأنه بلغتهم دعوة إبراهيم عليه السلام . ا هـ كلام النووي رحمه الله تعالى .

قال العلامة الأبيّ معقباً على كلام النووي : تأمل ما في كلامه من التنافي ، فإن من بلغتهم الدعوة ليسوا بأهل فترة ، فأهل الفترة هم الأمم الكائنة بين أزمنة الرسل الذين لم يرسل إليهم الأول ، ولا أدركوا الثاني ، كالأعراب الذين لم يرسل إليهم عيسى ، ولا لحقوا النبي ﷺ . قال : والفترة بهذا التفسير تشمل ما بين كل رسولين ، ولكن الفقهاء إذا تكلموا في الفترة فإنهم يعنون بها التي بين عيسى عليه السلام ، وبين النبي ﷺ ، وذكر البخاري عن سلمان أنها كانت ستمائة سنة ، ولما دلت القواطع أي :- الأدلة القرآنية والنبوية القاطعة – أنه لا تعذيب حتى تقوم الحجة ، علمنا أنهم – أي : أهل الفترة – غير معذبين . ا هـ كلام الأبي رحمه الله تعالى .

فتبين لك أن أكثر أهل العلم على أن أهل الفترة غير معذبين لما تقدم في الآيات القرآنية .[4]

[4] هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان . الشيخ عبد الله سراج الدين . ٢٩١